اللغة

اللغة هي مجموعة من الرموز والإشارات المستخدمة كأداة من أدوات المعرفة والتواصل الاجتماعي، وهي من أهم وسائل التفاهم بين أبناء المجتمع في شتى مجالات الحياة، ودونها يصعب تطوير النشاط الإنساني المعرفي؛ لأنها ترتبط ارتباطاً عميقاً بأسلوب التفكير، وبنحوٍ عام تتطوّر اللغات وتتنوّع مع مرور السنوات، ويُمكن إعادة تاريخ تطوّرها وبنائها عن طريق المقارنة بين لغات أجدادنا ولغات أبنائنا، وعن طريقها يتمّ التعرف على هوية الجماعات السابقة، وتراثها، وحالاتها الاجتماعية، والثقافية، والإنسانية.

مفهوم اللغة بين القدماء والمحدثين

عرف الإمام **ابنِ جني** اللغة بأنها **مجموعة من الأصوات التي يُعبر بها كل قوم أو مجتمع عن أغراضهم وحاجاتهم**.

في حين رآها دي **سوسير** بأنها **نتاجٌ اجتماعيٌ لمكلة اللسان ومجموعة من التقاليد المهمة التي يتبناها مجتمع معيّن، لمساعدة الأفراد على ممارسة هذه الملكة**.

غير أنَّ تعريف اللغة بوظيفتها يختلف عن تعريفها بحقيقتها وعلاقتها بالإنسان؛ لأن الأصل في اللغة أن تكون مسموعة أي أن ينطقها الإنسان بلسانه وشفتيه ويسمعها شخص آخر بأذنيه.

خصائص اللغة في تعريفات القدماء

عند النظر بعين النقد والتحليل إلى تعريفات القدماء سنلاحظ وجود بعض الخصائص المشتركة بينهما، وأهمّها:

صوتية اللغة عرف القدماء اللغة بأهمّ مظاهرها وهي الأصوات، إذ تعدّ الأصوات اللبنة الأولى والأساسية في الصرح اللغوي، التي عُني بها اللغويون وغيرهم منذ القدم وأعطوها رعاية واهتمام كبيرين؛ لأن الإنسان ارتبط بهذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً على اختلاف العصور، حتى صار في يومنا غير قادر على التعبير أو التفكير عما يدور في ذهنه إلا عن طريقها، ممّا جعل العديد من الفلاسفة يؤكّدون أنّه لا سبيل إلى التفكير إلا بهذه الأصوات التي تظهر بصورة جمل وكلمات، ولذلك يُوصف الإنسان بأنّه حيوان ناطق أي أنّه يستطيع التفكير؛ لأنه قادر على النطق.

تعبيرية اللغة من الوظائف المهمة التي تقوم بها اللغة هي التعبير، فعن طريقها يستطيع الإنسان التعبير عما يدور في داخله، وما يحتاج إليه في حياته، ولقد كان الإمام **ابن جني** موفقاً للغاية في قوله: يعبِّر؛ لأنه لم يحصر وظيفة اللغة في توصل الأفكار كما يرى العديد من العلماء، وإنما رأي أن هناك أشكالاً للغة لا يقصد صاحبها توصل فكرة معينة ومنها

الكلام الانفرادي أي المونولوج مثل القراءة الانفرادية بصوت مرتفع وكتابة الملاحظات التي نريدها لأنفسنا.

اجتماعية اللغة لا يُمكن أن تنشأ اللغة إلا في مجتمع، ولا يُمكن استخدامها إلا في مجتمع، والكلام يختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية الموجودة في المجتمع الواحد والعصر والواحد، علماً أنه يُمكن لشعبين لهما التربية والنشأة أنفسها في المكان الجغرافي نفسه والوقت واحد أن يختلف كلامهما، وسبب ذلك هو اختلاف مجموعة من العوامل الاجتماعية بينهما، وبنحوٍ عام فإنَّ اللغة تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية.

عرفية اللغة للغة نظام يتعارف عليه أفراد المجتمع، حيث يحكمها العرف الاجتماعي وليس المنطق العقلي، فمثلاً إذا سألنا أنفسنا لماذا سميت الشجرة بالشجرة، والوردة بالوردة، والكتاب بالكتاب، والوعاء بالوعاء، ونحو ذلك، فإنّه العرف والمجتمع الذي يحكم الناس في معرفتهم للأسماء والمصطلحات المختلفة.

من هنا يمكن لنا **أن نقول**: إن أسلاف لغويي العرب تعاملوا مع اللّغة لا كمعطى يستحق الدّراسة في ذاتها، ولكن بوصفها قواعد يجب أن يلتزم بها المتكلم، صحيح أنّ العرب الأقحاحَ فُطروا على التّكلم باللّغة العربية، فبرعوا في رصفها، نظمًا ونثرًا، ولا سيما قبل وبعد بعثة النبي (ص)، لكن مع حدوث اختلاط العرب بالملل الأُخرى التي دخل إليها الإسلام، تفشّى ما سمي باللّحن، نتيجة اختلاط اللّسان العربيّ باللّسان الأعجمي، مما دعا كما هو معلوم إلى تحصين اللّغة عن طريق فرض قواعد ضابطة يجب أن يلتزم بها المتكلم حين التّكلم باللغة، ولا سيما أن في خدمة اللّغة خدمةَ للقرآن الكريم، ليكون العاملُ في تعاملهم مع اللغة عاملاً دينيّا محضاً.

أما **المحدثون**، فقد كانت الحاجة ماسّةً إلى تجديد الفكر اللّغوي العربي القديم، فبالرغم من تلك الأبحاث اللّغوية العربية التي خلفّها اللّغويون القدماءُ والتي عبّرت عن براعة في التّفكير وعن سبق حضاري سبقَ بطبيعة الحال تلك الأبحاثَ اللّسانية الحديثةَ التي دبّت في العصر الحالي، يقول في هذا الإطار الدكتور **رمضان عبد التواب**: إن كتب فقه اللّغة العربي من تراثنا اللغويّ، حقاً تبعث على الإعجاب والإكبار، إذ يظهر فيها شيء غير قليل من قضاياها سبقُ بعض العلماء القدامى لأحدث النّظريات اللّغوية في العصر الحديث بألف عام أو يزيد... ففي هذه الكتب وغيرها علم كثير، ونظريات لغوية تقف شامخةً أمام بعض ما وصل إليه العلماء في عصر التّكنولوجية الحديثة، والعقول الالكترونية.

لكنّ وصولَ لغتنا إلى هذا العصر الذي تغلب عليه التّكنولوجية الحديثة، والسرعة، حتى صار العالم كما يقال قريةً صغيرة، حتّم و بشدة مسايرة اللغة العربية لمقتضيات هذا العصر وتحدّياته.

غيّرت اللّسانيات الحديثة النظرةَ إلى اللّغة، بحيث تعاملت معها بمنهج حقّه الوصف أولاً وأخيراً، فأسدت إلى البحث اللّغوي الحديث بنظريات جديدة وحديثة أفادت في العديد من مجالات اللغة، ولا سيما تعليمها وتعلمها. ويعد فرديناند سوسير رائدَ هذا العلم الحديث ومؤسسَه وباعثَه إلى البحث اللغوي ككل، بحيث استقر رأيه أنَّ موضوع **علم اللّغة** هو **دراسةُ اللّغة في ذاتها ولأجل ذاتها**. **فاللغة** عنده هي: **ظاهرة معقّدة وغير متجانسة إلى حدٍّ بعيد**، بحيث لا يستطيع الباحث أن يدرسها من أنحائها المختلفة. وقد كان سوسير حريصاً أشدّ الحرص على أن يجعل علم اللغة علماً مستقلاً عن العلوم الأخرى، علماً له موضوعه الخاص ومنهجه المناسب له. وتعريفه للغة يفترض سلفاً استبعاد أي شيء يخرج عن حدود بنيتها أو نظامها، أما مجالها فيكون في وصف وتعقب تاريخ كل اللغات المعروفة، وتحديد القوى المؤثرة دوماً وعموماً على كل اللغات واستنباط القوانين التي تخضع لها كل الظواهر التاريخية المحددة.

وقد قسّم **سوسير** الظاهرة اللغوية إلى ثلاثة أقسام، هي: اللّغة، والكلام، واللّسان. فأما **اللّغة** فهي نظام من علامات وصيغ وقواعد، ينتقل من جيل إلى جيل وليس له تحقق فعلي، لأن الناس لا يتكلمون القواعد، وإنّما يتكلمون وَفقاً لها، وأقرب شيء إليها أنها تشبه السمفونية، في حين يشبه الكلام العزف على الآلات. أما **الكلام** فهو كل ما يلفظه أفراد المجتمع المعين، أي ما يختارونه من مفردات أو تراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة. في حين يكون **اللّسان** ظاهرة عامّة تتمثل في العنصرين السّابقين "اللغة والكلام" مجتمعين، و لهذا لا يعده سوسير ظاهرةً اجتماعية خالصة، إذ هو يشمل الجانبين معا الفردي "الكلام" و الاجتماعي "اللغة".

عموماً يمكن لنا أن نقول: إن اللسانيات الحديثة تميزت من الأبحاث اللغوية القديمة كونها نظرت إلى اللّغة نظرة وصفية تقوم على أساس الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية المدروسة في مدة زمنية محددة وفي مكان محدد. ويمكن أن نعدّ علم اللغة الحديث مديناً للعالم اللساني فرديناند سوسير كونه نقل ميدان البحث اللغوي إلي ساحة أرحبَ توجد فيها مفاهيم جديدة فتحت الباب على نظريات لسانية أخرى ستتلو نظرية سوسير البنيوية، ولا سيما في مجال تعليم اللغة وتعلمها.